

الشریف الرضی، الأغراض و الفنیة فی شعره

دکتر عبدالحسین فقهی

استادیار دانشکده ادبیات و علوم انسانی دانشگاه تهران

و محمد جرفی

(از ص ۷۹ تا ۹۸)

چکیده:

قرن چهارم هجری، عصر درخشش ادبیات عربی است، در این دوره شاعران و نویسندگان بزرگی نظیر منتبّی، ابوالعلاء معری، ابوتّمّام و شریف رضی و... ظهور کرده‌اند. از شخصیت‌های طراز اوّل این دوره، شریف رضی، شاعر و عالم و ادیب گرانقدر شیعه می‌باشد و آثار ادبی به یادگار مانده از وی کم نظیر است و به واسطه ویژگی‌های منحصر به فرد علمی و اخلاقی وی، آثارش تابلویی تمام‌نمای شخصیت برجسته اوست که سرشار از مفاهیم عالی انسانی، بلند نظری و تابلویی خیره‌کننده و شگرف از فضائل اخلاقی است.

شریف رضی در میان امت اسلامی دارای منزلتی ارجمند می‌باشد و کتاب نهج البلاغه که به همت بلند وی گردآوری شده، خود گواه صادق بر اوج مقام معنوی و اخلاقی اوست. توانایی هنری ماند- مطابقت لفظ و معنی، سلاست و فصاحت الفاظ و بلاغت معنی و انسجام و وحدت موضوع در قصیده، شعرش را از دیگران متمایز ساخته است.

در این مقاله نگاهی گذرا به اغراض و ویژگی‌های هنری شعر او خواهیم داشت.

المفردات الأساسية: الشریف الرضی، شعره، الاغراض، الفنیة.

مقدمه:

الشريف الرضى من الرجال الذين اسهموا في الحركة الأدبية في القرن الرابع الهجرى نثراً و شعراً، و خلف لنا ديواناً ضخماً يضم بين دفتيه اكثر من ستة عشر ألف بيت و ظلّ يفرض الشعر الى أن وافاه الأجل سنة ٤٠٦ هجرية و هو في السابعة والأربعين من عمره و لم يختلف اثنان في شاعريته الممتازة و مع ذلك لم نجد من عنى بشعره كما يجب و ذلك لطغيان شخصيته العلمية على شخصيته الأدبية و لعوامل أخرى نذكرها في صلب الموضوع. و هذا لا يعنى اننا ننفي وجود دراسات سابقة و معاصرة لشعر الشريف الرضى. لكننا نقول: ان نتاجه الادبي لم يحظ بالناية العلمية اللائقة و التحليل الادبي الدقيق المناسب فظلّ ديوانه طوى المكاتب و ظلّت اشعاره تنادى إلى من يشمر عن ساعد الجدّ ليعرضها على هواة الأدب و الشعر و قد ألمح هو إلى هذا المعنى في قوله:

أنا النَّضارُ الَّذِي يُضَنُّ بِهِ لَوْ قَلَّبْتَنِي يَمِينٌ مُنْتَقِدٍ

الشريف الرضى و شعره

الشريف الرضى رجل عبقرى من رجال القرن الرابع الهجرى، تخصص في عدّة علوم و فنون و دخل في معترك الحياة السياسيّة و الاجتماعيّة و شغل مناصب عدّة و برزت شخصيته كعالم دينى. و شريف من الطالبين ثم نقيبهم. كما هيأ له مركزه الدينى و الاجتماعيّ و السياسى أن يقرّه السلاطين و الخلفاء و يتقلّب في عدّة مناصب منها «نقابة الطالبين و النظر في امور المساجد في مدينة السلام و امارة الحجّ، و النظر في امور الطالبين في جميع البلاد و النظر في المظالم». (ابو الثعالبي، بنية الدرّاج، ٣، ص ١٣٢).

نكتفى بذكر بعض تأليفه و كتبه كشاهد على علوه و تضرعه، و على رأس كتبه جمعه لأقوال أمير المؤمنين على ابن ابى طالب - عليه السلام - و اسماء «نهج البلاغة» مستنداً إلى الروايات الصحيحة و حذف الأستناد. و لا يخفى عنى أحد مدى الخدمة التي قدمها الشريف الرضى في تأليف نهج البلاغة إلى البشرية حيث أصاب كلّ ذى لبّ و حكيمة من حكم هذا الكتاب العظيم و ممّابن دفتيه من علوم، فاغنى بها كل منهم عقله و اثرى بها بصيرته.

٢- كتاب فضاة بغداد ٣- كتاب انشراح الصدر ٤- كتاب خصائص الائمة ٥- مجازات

الآثار النبوية ٦- تلخيص البيان عن مجاز القرآن ٧- حقائق التنزيل فى متشابه التنزيل ٨- معانى القرآن ٩- تعليق على ايضاح ابي على النارسى ١٠- الحسن من شعر الحسين بن الحجاج ١١- الزيادات فى شعر ابن الحجاج ١٢- الزيادات فى شعر ابي تمام ١٣- مختار شعر ابي اسحاق العتّابى ١٤- رسائل شعريّة بين الشريف و ابي اسحاق ١٥- رسائل لابي اسحاق الصابىء فى ثلاثة مجلّدات ١٦- سيرة والده الطاهر ١٧- تعليق على خلاف الفقهاء ١٨- ديوان شعر فى مجلدين عنى بجمعه جماعة و آخر ما جُمع الذى جَمَعَه ابوالحكيم الخبرى (قائمة كتب الشريف توجد مع تفصيل فى الغدير، ج ٤، ص ١٩٨ للعلامة الأمينى)

فبهذا بقى الشريف خالداً على مرّالعصور و ان كان عمره الأوّل لايزيد على السابعة و الأربعين.

حياة الشريف فى سطور:

«ولد الشريف الرضى و اسمه ابوالحسن محمّد بن احمد الحسين سنة ٣٥٩ هـ و يتصل نسبه بعد ابيه الأذنّى و ثلاثة جدود بالإمام موسى بن جعفر - عليهما السلام - و والدته فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر، صاحب الديلم و ناشر الدين الاسلامى فى هذه البقعة من الأرض». (عبدالحسين الامينى، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨١)

فضل الشريف:

قد أجمع المؤرّخون و الكتاب على فضل الشريف فى العلم و تقدّمه كما جاء فى تاريخ بغداد، «و كان (الرضى) من اهل الفضل و العلم و الأدب، ذكر أحمد بن عمر بن روح عنه انه تلقّن القرآن بعد ان دخل السنّ فجمع حفظه فى مدّة يسيرة و صنّف كتاباً فى معانى القرآن يتعدّد وجود مثله» (الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٢٢٧).

يقول الثعالبى: «ابتدأ الشريف بقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل، و هو اليوم ابداع ابناء الزمان و انجب سادة العراق ثم هو أشهر الطالبين من مضى منهم و من عبّر، على كثرة شعرائهم المفلّحين». (عبدالمكّ الثعالبى، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣١).

كما اثنى عليه الباخرزى فى قول يضيق المجال عن الاتيان به و قد جاء به فى كتابه د

میه القصیر و عصرة اهل العصر، ج ١، ص ٢٨٥.

وكان الشریف شجاعاً فی شتّى المیادین بما فیها السیاسیة، فكان بیغض العباسیین، نرى فی دیوانه یتضجّر منهم و یتطلع إلى الخلافة فی عدّة من قصائده. (أنظر فساند الشریف فی هذا المجال المجلد الأوّل، الصفحات ٢١٥ و ٢١٤ و ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٤٠٧ و ٤٠٩ و ٤٢٣ و المجلد الثانی الصفحات ٩٥ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٦٨ و ١٧٧ و ٢٠٧ و ٤١١ و ٢٢٥ و ٢٢٩ و ٤٢٣ و ٥٤١ و ٥٤٢ و ٥٦٧ و ٤٢٣).

«تُوْفِيَ الشریف الرضی یوم الأحد السادس من المحرّم سنة ست و اربعمئة و دُفِن فی داره بمسجد الأنباریین. (الخطیب البغدادی، تاریخ بغداد، ج ٢، ص ٢٢٧)

شعر الشریف

حظی الشریف بإعجاب الشعراء والأدباء و النقاد قديماً و حديثاً و أثار اهتمام كثير من شخصیات عصره لما فی شعره من ابداع و روعة و جمال.
فالثعالبی و هو معاصره تحدّث عنه فی كتابه بتيمة الدهر و أثنى على شعره كما ذكر قوله سابقاً.

كما يروى الخطیب البغدادی فی تاريخه، عن أبی محفوظ شهادة جماعة من أهل العلم و الأدب فقالوا: الرضی أشعر قریش. فقال ابن محفوظ هذا صحيح، (الخطیب البغدادی، تاریخ بغداد، ج ٢، ص ٢٢٤)

و قد كتبت عنه الموسوعات و الكتب الأدبیة و ذكره جميع مؤرخی الادب العربی.
بقول حسن الأمين فی الموسوعة الإسلامیة: «و شعره من الطبقة الأولى و صفأ و بیانا و إبداعاً» (حسن الأمين، الموسوعة الإسلامیة، ج ٤، ص ٢٥٨).

و فی الموسوعة المیسرة جاء ما یلی: «و كان (الشریف)، أشعر الطالبيين، نظم فی المدح و الفخر و شكوى الزمان و الغزل و الإخوانیات، فتغنّى بالامه و آماله، تغلب فی شعره القوّة و الجزالة و الانسیاب و العذوبة و الصبغة البدویة و البعد عن المحسنات الخارجیة» (محمد شفیق غربال، الموسوعة المیسرة، ص ١٠٨٣)

و كان الصاحب بن عبّاد، وزیر آل بويه من كبار الأدباء و الشعراء، قد اعجب بشعر الشریف فأرسل إلى بغداد سنة ٣٥٨ هـ من ینسخ له دیوانه، و قد شكره الشریف و مدحه

بقصيدة جاء فيها:

بسبني و بينك حرمتان تلاقنا
و وسائل الأدب التي تصل الفتى
إن اهدي اشعاري إليك فانها
نثرى الذي بك بقنتدى و قصيدى
لا باتصال قبائل و حدود
كالسرد أعرضه على داوود

(ديوان الشريف، ج ١، ص ٢٩٥)

وكما اعجب ابن جنى، العلامة اللغوى امام النحو و استاذ الشريف ثم صديقه، بشعره، خاصة بقصيدته التي رثى بها ابا طاهر بن ناصر الدولة الحمدانى سنة ٣٨٢ هـ فعمد إلى تفسيرها و شرحها، و مطلقها:

«القبى السلاح ربيعة ابن نزار
أردى، الردى، بقريعك المغوار»

(ديوان الشريف، ج ١، ص ٤٩٥)

وكان الشريف يحتفظ بشعره فنجد يرتبه على التاريخ، و ذلك يسهل لدارس الشريف أن يفهم تطور حياة الشريف و الأحداث التي حدثت حينذاك، و قد اهتم عدنان ابنه بشعره فزاد عليه ما وجد من مسودات ابيه و مازال ابوالحكيم الخبرى المتوفى، سنة ٢٧٦ هـ ان رتب ديوان الشريف على الأغراض، فجعل باباً للمدح و باباً للفخر و باباً للنسب و باباً للفنون المختلفة، ثم رتب الفصائد فى كل باب على القوافى متبعاً نظام حروف الهجاء و انشأ و عمد الناس بعد أبى الحكيم إلى ترتيب فصائد الديوان على القوافى حسب حروف الهجاء دون النظر إلى الأغراض (جعفر حسن نورالدين، الشريف الرضى حياته و شعره، ص ٣٢).

و الأغراض التي نجدها فى شعر الشريف هى: المدح و الرثاء و الغزل و الفخر و الهجاء و الوصف و الشكوى، و العتاب و الحكمة و المثل.

أما المدح فنراه يمعن فيه امعاناً و يبلج فيه قوياً و يزخر كالسيل المتلاطم و فى الرثاء هكذا و قد أكثر من هذا الغرض، و اما الغزل فيسيل رقةً و عذوبةً و حجازياته كلها فى الغزل و هى من أرق شعر العرب، و اما الفخر: فله اليد الطولى، فى هذا الغرض و اما الهجاء فنجده نزرأ جداً لا يتجاوز الثلاثين أو الأربعين بيتاً و اما الشكوى، و العتاب فلازمه

هذا الغرض من أوّل حياته إلى آخرها خاصّة والشيب قد نزل به قبل أوّنه فنراه كثير الشكاية من بياض شعره والذي يسمّيه هو الشيب. واما الحكمة والمثل فنكتفى بما قاله الدكتور زكى مبارك في هذا الجانب:

«فقد أستطيع أن أجزم بأنّه في هذه الناحية أشعر من المتنبي لأنّ المتنبي كان يقصد إلى الحكمة فصدأ ويتعمّدها وهو متكلّف، أما الرضى فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجّية والطبع فيرسلها عفواً بلا تصنّع ولا اعتساف (زكى مبارك، عبقرية الشريف الرضى، ص ٢٤).
التشيع في شعر الشريف

من تصفّح ديوان الشريف الرضى و سائر كتبه يجد العقيدة الشيعية الصحيحة تُصَفِّضُ عليها و يجد روح الشريف التّبيّلة تفيض بتعاليم المذهب الشيعي اذ سرّت هذه الفكرة فيها ولم يحد عنها طرفة عين والرجل كان رجل ثورة على الظلم والاستبداد وإن كانت الظروف غير مؤاتيه لكي يُعلّنها ثورة على الخلافة العباسية إذ كان التشيع مبدأ ثورياً سار فيه كل من حاول الثورة على السلطة العباسية، فنكونت بهذا نظرية سياسية متكاملة، لها مقوماتها المميّزة وممارساتها المعروفة. وازدهر تيار التشيع في القرن الرابع الهجري و غلب على كلّ التيارات الموجودة.

و وجود الشريف الرضى قطباً أساسياً من أقطاب التشيع في زمنه أمر طبيعيّ لأسباب من أهمّها نسبه، هذا النسب الذي ينتسب إليه الناس ومنها، أنّ التشيع كان سمة من سمات النشاط السياسي والفكري في زمنه، ومنها ايضاً ملاءمة الفكر الشيعي لمنطلقات تفكير الرضى في واقع الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في زمنه، ولهذه الأسباب أجهر ولاءه لآل البيت وميله نحو التشيع فقال:

فأجهر بالولاء ولا أوارى
وأنتطق بالبراء ولا أحابي

(ديوان الشريف، ج ١، ص ١١٧)

إنّ التشيع عند الرضى كان وسيلة للمحافظة على وحدة الامة الاسلامية، هذه الوحدة التي وضعها نهاون القوم، وسعيتهم وراء ميلهم الذاتية ومن هنا كان حرص الرضى على تماسك الأشراف و على سُمعيتهم الحسنة تفكيراً وممارسة. فكان نقيهم، يسهر

على، عزّتهم ورفعتهم بالرعاية والتأديب، فتشيع إلى العدل والتوحيد. وقد ظهرت
سمات التشيع في شعر الرضي ظهوراً عفويّاً أحياناً، وهذا كان حين يطرق موضوع
المدح أو الفخر أو الرثاء، كما ظهر قصداً في أحيان قليلة أخرى، حين رثى، الإمام
الحسين - عليه السلام - في عاشوراء في قصائد أربع.

وتجده بنظم قصيدة يفتخر بأهل البيت - عليهم السلام - ويذكر قبورهم ويتشوقها ثم
يذكر فضائل الإمام عليّ - عليه السلام - ويذكر مواطنهم ومواطن هذه القبور الشريفة:

سقى الله المدينة من محلّ	لباب الماء والنطف العذاب
وجاد على البقيع وساكنيه	رخصي الذليل ملان الوطاب
وأعلام الغرّي وما استباحث	معالمها من الحساب الباب
وقبراً بالطفوف يضمّ شلواً	قضى ظمأً على برد الشراب
وسامراً وبغداداً وطوساً	هطول الودق منخرق العباب

(الديوان، ج ١، ص ١١٤)

و ظهرت الإشارات الشيعية ظهوراً نادراً في شعره حين طرق باب المدح فقال من
جملة ما مدح به الوزير أبا منصور بن صالح أنّ نسبه الشريف يجعله مؤهلاً أيضاً للمدح:

«أبى لى عليّ والنبيّ و فاطمّ
جدودى أن يلوى بعرضى عاب»

(نفس المصدر، ص ٦٨)

إنّ ظهور سمات التشيع كان في مرثيه وخاصة تلك التي خصّ بها سيّد الشهداء
الإمام الحسين - عليه السلام - وحين نطلع على مضامين هذه المرثي نرى طبيعة التفكير
الشيعي في اروع صورها، ففي قصيدة نظمها في رثاء جدّه الحسين - عليه السلام -، مطلعها:

«كربلا لا زلت كرباً وبلا	ما لقي عندك آل مصطفى
قتلوه بعد علم منهم	أنه خامس أصحاب الكسا
يا جبال المجد عزاً و غلا	و بدور الأرض نوراً و سناء

(نفس المصدر، ص ٤٧)

و في القصيدة الثانية التي نظمها سنة ٣٩١ هـ في رثاء الحسين - عليه السلام - و مطلعها:

ولم یکنف الرضى بهذه المصادر الثلاثة لصفه ماده عمله الأساسیة بل اردفها بمصدر رابع و هو الشعر الجاهلی، أو الشعر العربی التقدیم، و مؤلفات الرضى تدلّ علی سعة اطلاعه علی هذا الشعر الذی کثیراً ما ذکر ابیاناً غیر قليلة منه فی کتبه العدیة كما أشار الی اهتمامه بأمر هذا الشعر فی دیوانه (دیوان الشریف الرضى، ج ١، ص ٣٤١-٣٤٨ و ٣٤٦).

وقد بحث الرضى فی شعر شاعر عربی فحل فأنف کتاب «الزیادات فی شعر أبی تمام» كما أنه كان جاداً فی تتبع مصادر اللغة و أصولها، فقد كان دائم البحث فی علوم هذه اللغة من بلاغة و بیان و نحوہ يدلّ علی هذا علاقته مع علماء العربیة مثل السیرافی و ابن جنی و الفارسی، كما بدلّ علیه تألیفه کتاب «تعلیق علی إیضاح أبی علی الفارسی» و إذا ما اضمنا الی ما سبق القیمة الكمیة و النوعیة للجانب الإبداعی عند الشریف شعراً و نثراً «دیوان ضخم فی الشعر و رسائل نثریة» آخذین فی الحسبان أنّ الرضى استخدم اللغة فی شعره استخداماً عفویاً یصدر فیه عن طبع سهل، یبعد عن التصنع و التکلف، عرفنا عندئذ أن الرضى صادق، بل عرفنا اسباب صدقه حین یفتخر بأقدامه فی هذا الميدان حیث یقول:

«و أنّ قوافی الشعر ما لم أکن لها مسففة فیها عتیق و مُقرف
أنا الفارس الوتاب فی سهواتها و کلّ مجید جاء بعدی مُردف»

(نفس المصدر، ج ٢، ص ٢١ - مسففة: غیر محکمة. العتیق: الجواد الرائع. مقرف: ما یدانی الهیجة.)

و منها أيضاً أنّ فصاحة لغة شعره افترنت بالإیقاع العذب الذی اضمی علی مادته اللغویة سمة الغنائیة و الرنیم هذه السمة التی لا تظهر فی شعره فحسب بل فی نثره و خطابه.

لننظر فی الحفول الدلالیة للبنی اللغویة فی هذه الأبیات:

علماً أقول بدیة و رویة	یضل عندک فائل لا یعلم
شعراً أئیر به العجاج بسالة	کالطعن یُدمی و القنا تنحطم
و فصاحة لو لا الحیاء لهجنت	اعلام ما قال الولید و مسلم
و خطابة للسمع فی جنباتها	شغل یعوق عن الذی یترئم
فعلام یطلب غایبی مُسَرَّعاً	غلق الجنان أقول ما لا یفهم

(نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٢٥)

و حين ننظر فى أسباب تجويد لغة شعر الرضى أو فى أسباب جودة هذه اللغة و رقتها فإننا نراها كثيرة متعددة الإتجاهات لكن مما لا شك فيه أن الطبع و البديهة الحاضرين يأتیان فى طليعة هذه الأسباب، إلا أن هذا لا ينفى أهمية الموروث الإبداعى الذى ثقفه الرضى و نهل منه و اقتبس كثيراً من تراكيبه و صورته الفاتنة، إضافة إلى هذا يمكن ان نذكر سبباً آخر كان له الأثر فى تقنية القول الشعرى عند الرضى و هو نشاط الحركة النقدية فى ذلك الحين، فقد كان أمر النقد الأدبى قد بلغ أنثى ذروة مجده فى تاريخه الذى يمتد حتى أيامنا هذه، ذلك النقد الذى و اكب حركة الإبداع، و اقترب منها فى الجهد و القيمة، فلا يخفى على متتبع، أن أعلام الشعر العربى و أعلام النقد العربى هم من رجال القرن الرابع الهجرى و فى هذا القرن كثرت الأبحاث فى مسألة اللفظ و المعنى و قد وردت مباحث شريفه تناول موضوع اللفظ و المعنى، عند الجاحظ فى «البيان و التبيين» و ابن رشيق القيروانى فى «العمدة» و أبى هلال العسكري فى «الصناعتين»، و أطلع الشريف على كل هذه الأبحاث فلم يغادر فكره هذا الأمر فى شعره أو فى بحثه البلاغى، فهو شاعر مجيد، و هذا يقتضى امتلاك ثروة لفظية و افره غنية، كما يقتضى السيطرة على جواهر هذه الثروة و ترك الغث الضعيف منها، لهذا نجده يذكر أن جواهر الألفاظ مطروحة أمامه، يختار أحسنها ليبنى مجد نظمه و نثره فيقول:

فان المجد شاعره	ألا من كنت شاعره
على فكرى جواهره	وان اللفظ مطروح
واما النثر نائره	فاما النظم ناظمه

(نفس المصدر، ج ١، ص ٤٥٨)

و لم يكن اهتمام الرضى ببنية القول أكبر من اهتمامه بطبيعة هذا القول فاذا كان تجويد القول أمراً مهماً فى شعره، فإن هذه الجودة لم تكن منفصلة عن المعنى الرفيع السامى، فالرضى شاعر حمل شعره كثيراً من القيم و المبادئ، و الآراء، فكان لزاماً عليه أن يحقن توازناً و انسجاماً بين مادة هذا الشعر و الأفكار التى يحملها، و لهذا كان الرضى بمنأى عن مسألة و فره الثروة اللفظية أو و فره المعانى و الأفكار لحظة الأبداع فغالبية الإبداع لديه

الشهاب و الضوء تنتظم بفضل فعل «جاء» كما أنّ العلاقة بين الأسي و القلب فى الشطر الثانى تنتظم بفضل الفعل «تجلو» و بين «جاء» فى الشطر الأول و «تجلو» فى الشطر الثانى علاقة اساسية يشكّلها التفكير المضىء أو التأمل المتبصر، إنّ العمارة المعنوية فى هذا البيت تشكّل «هرماً» يقف على رأسه حيث التفكير و التبصر.

انّ الانتماء اللغوى فى شعر الرضى يختلف باختلاف مستويات التعبير يظهر لأسباب عديدة منها ما يتعلق بشخصية المتلقى الأول، أو الأساس التى نظمت القصيدة و بثت إليه. على أنها خطاب أدبى جميل ذو غاية معينة، فحين تصير القصيدة خطاباً موجّهاً إلى اديب أو شاعر مثل ابن جنى أو ابن عباد أو ابى إسحاق الصابى فإنّ الحفول الدلالية التى تغطيها اللغة الشعرية و تنتشر ألفاظها فى مداها تختلف عنها حين توجّه إلى خليفة أو سلطان أو وزير، ففى الأولى تطفى الوظيفة البلاغية و تتحقّق غاية الفن الجمالية و ينحو الاسلوب منحى ممتعاً، اما فى الثانية فتظهر الوظيفة الإيلاجية و تتحقّق وظيفة الفن المعرفية و تتجه نحو الغاية التى فى نفس الشاعر، لكن هذا لا يعنى أنّ وجود إحدى الوظيفتين فى ائى نوع من النوعين بلغى وجود الأخرى، إنّ الرضى شاعر مجيد و فى النص الجيد لا يمكن الفصل بين الوظيفتين، فهما غاية الفن الجيد، و من سمات وجوده، إلّا أنّه من الممكن ان تطفى إحداهما على الأخرى، و تسيطر على العلاقات المتنوّعة فى بنية النص، تأتى بشاهدين فى هذا المجال، فالأول قصيدة رثى بها أبا على الحسن بن احمد الفارسى النحوى و اللغوى صاحب كتاب الايضاح المتوفى سنة ٣٧٧ هـ حيث تظهر فيها ملاءمة بين البنية اللغوية و عمل المرثى الذمّ سارت أخبار منزلته فى العلوم العربية و انتشرت فى الآفاق، و هذا ما يبيّنه الرضى فى قالب شعرى مناسب و لا سيّما من جهة الألفاظ و التشبيهات و الصور الشعرية حين يقول:

و سائرانٍ بالخطى لا بالخطا	شواردٍ عنك قطعن الرُّبُطا
كما رايت الخيل تعدو المرط	ألْبَسَتْ فيها كلُّ أُذُنٍ قُرطا
قد وردت افهامنا ورد القطا	و مشكلات ما نشطن منشطا
عطالها بمقولٍ إذا عطا	مَيَز من ديجورها ما اختلطا

ضَلَّ المِجَارُونَ وَ مَا تَوَرَّطَا	عَلَّلَ مَا بَيْنَ العِقَاصِ المُشْطَا
قَسَمَ يَهْدُ الأَرْضَ إِنْ تَحْمَطَا	مَلَّوْا مِجَارَاةً فَنَبِيْقُ قَدْ مَطَا
تَطَرَّفُوا الفَجَّ الَّذِى نَوْسَطَا	مَلَّ المَطَى القَرَبَ العَنَظَنَطَا
كَانُوا العِقَابِيْلَ وَ كُنْتَ القَرَطَا	لَا جِزْعاً أودى وَ لَا مُغْتَبَطَا

(نفس المصدر، ج ١، ص ٥٨٨ الخطا: نقبض الصواب. الربط: ج رباط. الشوارد: منقطعات النظر. المرطى: ضرب من القدر. عطالها: من عطل المرأة. العقاص: ج عقصة: الضفائر. المشاطا: ما مشط به. مطا: جد فى السير. القرب: سير الليل. تحمط: هدر. (العنظنطا: الطويل. العقابيل: ناياب العلة. القراط: السابق).

فترى فى النص ما يدل على الصور الشعرية و الألفاظ و التشبيهات ما تناسب الموضوع و هو رثاء أحد أئمة اللغة.

ان بينة الخطاب الشعرى عند الرضى تنطلق عفو الخاطر من مثل هذه الاحكام، فتقوم على الموازنة بين لغة النص و مناسبه و على الانسجام بين الأسلوب التعبيرى و حال المتلقى و مقامه، كما يتحقق فى لغته الشعرية ملاءمة جميلة بين لغة القصيدة و موضوعها. و نأتى كشاهد مثال بمطالعين لقصيدتين اختلفت فيها الأغراض فاختلفت اللغة تبعاً للمعنى، اما الأولى: نظمها فى مقتبل العمر موضوعها الغزل و وصف الروض و ذكر أثر اللهو و الغناء، نجد القصيدة ملأى بالنشوة و الطرب، رثانه بالنضارة و الحركة تتمايل الألفاظ فيها بين المعانى طرية فرحة و مطلعها:

استقنى، فاليوم نشوان
و الرضى صايد و ريان

(نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٠٤)

والقصيدة تربو على العشرين بيتاً، كل أبياتها فيها هذه الخفة الملحوظة و الألفاظ الراقصة. و اما القصيدة الثانية نظمها الرضى فى مدح الخليفة «القادر»، نجد مناسبة موفقة بين ألفاظ القصيدة و معانيها من جهة و مقام الخليفة و اقدار المستمعين ممن ضم مجلسه من جهة أخرى، فألفاظ القصيدة تبنى من أصوات قوية ضخمة، انتجت احرفى القاف و الضاد و العين و الطاء و الجيم و الكاف و بالتالى نهى ألفاظ قوية فخمة، اما معانيها فتقوم على الجلالة و الرهبة و المهابة و اما المناسبة فهى المدح و الفخر و هذا ما يلائم الخليفة

تجعل العلاقة بين اللفظ والمعنى عضوية كما تجعل بنية اللغة الشعرية قائمة على تحقيق التوازن بين اللفظ والمعنى من حيث البنية والطبيعة والمضمون وهذا ما أدركته حركة الإبداع في الشعر العربي قديماً وحديثاً فالرضي الناقد كما استشهدنا بهذا البيت سالفاً، يقول:

«لا يفضل المعنى على لفظه شيئاً ولا اللفظ على المعنى»

(نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٥٥)

إن القيمة الجمالية لقصيدة الرضي، كما يتضح من البيت التالي، تأتي من الشكل ومن المضمون، فهي نضىء وتسطع بنور جمالها الظاهر، كما تمتع القلب وتسّر الفؤاد وتجلو الهمم والأسى بمضمونها ومعانيها. يقول الرضي في أمرٍ فصيدته مفتخرًا:

«جاءت كما جاء الشهاب مضيئة تجلو الأسى عن قلب كل مُفكّرٍ
من خاطر خطرت به همم العلى والشعر بعد بقلبه لم يخطرٍ»

(نفس المصدر، ج ١، ص ٤٧٢)

ففي هذا القول يظهر أن النسج اللغوي فيه محكم بدقّة وإتقان وصلا ذروة قيم الجمال والذوق، وهذا البيت ليس وحيداً في شعر الرضي من جهة تحقّق القيم الجمالية والمعرفة فيه، أنه أنموذج ومثال حسب:

«جاءت كما جاء الشهاب مضيئه تجلوا الأسى عن قلب كل مُفكّرٍ»

جاءت هذه القصيدة بل فصائده على الزى المذكور في هذا البيت، ويضيء ويجلو الهمم عن فؤاد المتلقّي.

ففي هذا البيت تظهر قيمتان جماليتان، هما من السمات الأساسية للخطاب الأدبي عاقمة وللقول الشعري خاصة، أنهما عماد اللغة الشعرية، الأولى: القيمة البلاغية والثانية: القيمة الإيلاجية، أمّا القيمة البلاغية فهي واضحة بيّنة ولا سيّما من خلال الصورة الشعرية الجميلة أو من خلال التشبيه التام الأركان في هذا البيت، فالمشبه، هو القصيدة واداة التشبيه، الكاف والمشبه به، الشهاب ووجه الشبه، الإضاءة. إضافة إلى الشطر الثاني هو وجه شبه آخر يشكل بمفرده صورة شعرية أخرى، وتنضافر هذه القيمة مع القيمة الثانية وهي القيمة الإيلاجية حيث تشير لغة هذا البيت إلى مثال من شعر الرضي وتدلّ على أنّ

هذا المثال يبين أنّ لقصيدة الرضى وظيفة هي طرد القلق من الفئوس والأسى من القلوب، أنّ هذا البيت يخبرنا عن طبيعة شعر الرضى ويبلغنا أنّ هذا الشعر يضئ الحياة ويحيى النفوس.

ففى هذا البيت ايضاً نتحقّق وظيفتنا الفن: الوظيفة الجمالية، والوظيفة المعرفية، فالأولى ظاهرة من البنية الجمالية فيه ومن قيمه البلاغية، والثانية، ظاهرة ايضاً من مضمونه الخاصّ بالإشارة إلى وظيفة من وظائف شعر الرضى، كما هي ظاهرة من القيمة البلاغية ولا فصل بين الوظيفتين فى الفن الخالد الذى يحقّق غرضاً فنياً وغرضاً نفعياً فى آنٍ معاً. أنّ وظيفة اللغة الجمالية فى هذا البيت لا تأتى من الحقول الدلالية لألفاظه وتراكيبه فحسب بل تأتى ايضاً من بنيته الصوتية، ومن روعة التكرار المنتظم والعفوى لجرس بعض الحروف فيه، ان الإيقاع الصوتى فيه، رنيم وعذب جزاء إعادة صدى الصوت فى بنية ألفاظ إعادة مرتبة بشكل عجيب، ولا سيّما من خلال الألفاظ «جاءت، تجلّو»، المنتشرة فيه التى تشكل فيها حرف الجيم موسيقاً خاصّة تطرح تساؤلات، وتجب عنه: جاءت، كيف؟ كما جاء الجيم: الجيم الثانية على أية هيئة؟ تجلّو الجيم الثالثة. أنّ الوحدة العضوية فى هذا البيت اتّسعت لتردّد حرف الجيم ثلاث مرّات، وهذا التردّد الثلاثى انتظم أكثر حروف هذا البيت، فكذلك حرف التاء، جاءت، مضبّثة، تجلّو، وكذلك «الكاف» كما، كل، مفكّر، ومثل هذا تردّد حرف «الميم» و«لام» التى تردّد صوتها مرّات ثلاثاً وان كان رسمها ظهر أربع مرّات، لأنّها فى إحداها كانت شمسية «الشهاب» وكذلك الهمزة، لكنّها زادت مرّة واحدة، لِمَا لها من أثر فى تنظيم الإيقاع الصوتى من بين حروف العربية أنّ لها نبرة خاصّة فى بنية الموسيقى المنتظمة.

هذا الإيقاع العذب المنتظم فى هذا البيت يكاد يشكل سمة عامّة فى شعر الرضى، ولهذا قال الرضى: أنّ قصيدته مضبّثة، تجلّو الأسى. فاذا نظرنا فى البيت الذى يلى هذا البيت، مثلاً فاتنا نجد هذا التردّد الثلاثى المنتظم لأصوات بمنح إيقاعها احرف «الخاء» و«الطاء» و«العين» و«الهاء». وهذا التردّد المنتظم للأصوات فى هذا البيت، اقترن بتردّد منتظم للمعاني يبدأ من تناظر معنى بين الشطرين، ففى الشطر الأوّل نجد العلاقات بين

«الفادر» و قدره، كما مقام الشريف الرضى الذى يقول فى هذا الحال:

لمن الحدوج تهزهن الأينق	والرّكب يطفو فى السراب و يفرقُ
فى موقف يغضى العيون جلالة	فيه و يعترّ بالكلام المنطقُ
وكأنما فوق السرير و قد سما	أسدٌ على نشزات غاب مُطرقُ
والناس إما راجع مُتَهَيَّبُ	مما راي أو طالع مُتَسَوِّقُ
ما لوا إليك محبة فتجمعوا	و رأوا عليك مهابة فستفرقوا
عطفاً أمين المؤمنين فائنا	فى دوحه العلياء لانتفرقُ

(نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٩)

تقع القصيدة فى أكثر من خمسين بيتاً كلها على هذا السياق و هذه النبرة القويّة المحكمة.

الموسيقى الشعرية فى الشعر الرضى

قد جرى دأب شعراء العرب على هذى الإيقاع أو التشديد بشكل عفوى ينم عن فريحة و طبع و عشق للانتظام و الحركة المرتبة الهادفة دون الاهتمام أو الانتباه إلى ما يسمّى فيما بعد بعلم العروض، هذا العلم الذى استنبط بعد ان استقرت بنية الفن الشعرى عند العرب، و توطدت أركانها و رسخت أسسها. فالشعر المطبوع لا يستعين بالعروض على نظم الشعر لأنّ «من صحّ طبعه و ذوقه لم يحتج إلى الإستعانة على نظم الشعر بالعروض التى هى ميزانه، و من اضطرب عليه الذوق لم يتسغن عن تصحيحه و تمويهه بمعرفة العروض و الحدق به». (عبار الشعر، ابن طباطبا العلوى، تحقيق طه الحاجزى، محند

زغلول سلام، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٣)

و الرضى صاحب الديوان الشعرى الضخم ذى القصائد الطويلة التى طرفت موضوعات متنوّعة و غنيّة متخذاً احرف العربية بأكملها قوافياً لها، هو من الذين لم يضطرب عليهم الذوق، بل من الذين صحّ طبعهم و ذوقهم فأروا أنّ القيمة الفنيّة للكلام المنظوم تأتي من ايقاع هذا الكلام أو من نغم هذا الكلام حين إنشاده، فكان ينظم القصيدة ليتحف الناس بلطفها و جمالها إعتقاداً منه أنّ أفضل الشعر هو أحسنه إنشاداً فقصيدته تحفة - كما يقول - و التحفة فى المعجم هى ما اتحف به الرجل من اللطف و

الإنحاف فيها قائم على الإنشاد، يقول:

هذه تحفتى إليك وخيرُ الـ
شعر ما كان تحفة الإنشاد

(ديوان الشريف الرضى، ج ١، ص ٣٠٠)

وقد ذكر الرضى في شعره مزايا عديدة تدل على إهتمامه بإيقاع الشعر مشيراً إلى قيمة جمالية عمل على تحقّقها في شعره معطياً إيّاها تسميات متنوعة مترادفة، فهى تكون قائمة أحياناً على التفرّد وأحياناً على النغم وأحياناً أخرى على ما يروق السمع ويطربه، ولم نلاحظ في هذا الشعر ما يشير إلى أهمية علم العروض لأن الشاعر لم يكن فى حاجة إلى وضع ميزان يقيس طاقته الإبداعية وقدرته الخيالية، فالرضى صاحب أذن موسيقية تعشق النغم اللطيف، والنشيد العذب كما هو صاحب خيال ثرى وخصب، يوفق بين اطراف الصورة وبيدع قصائد تقوم على الانسجام والوحدة على الرغم من أثر الخيال، هذا الخيال الخصب الذى يخلق فى عوالم رحيبة فسيحة مستقديماً من كلّ منها صورة ما لاتصدع بانتظام بنية شعره، وهذا ما جعل شعرة يؤثر فى النفوس فتطرب له الاسماع وتتشوق إليه الأفهام، ومثل هذا الشعر القائم على الملاءمة بين الخيال والإيقاع هو ما جعله العلماء أكثر أثراً فى النفوس. يقول ابن سينا: «الشعر لا يتم إلا بمقدمات مخيلة ووزن ذى إيقاع متناسب ليكون أسرع تأثيراً فى النفوس». (ابن سينا، المجموع أو الحكمة العروضية (من كتاب معانى الشعر) تحقيق محمد سليم سالم، تا ١٩٦٩م، ص ٢٠).

فنرى قول الشريف مراعيّاً فيه الانتظام الوزنى، والصورة الشعرية:

الفاك والقلب صافٍ من رجيع هوى
وانثنى عنك بالأشواق نشوانا
ولا تداويست من فُرح قرى كبدى
ولا سقانى راقى الخى سلوانا
يقول صحبى وقد أعياهم طربى
بعض الأسى أنما احببت انسانا

(ديوان الشريف الرضى، ج ٢، ص ٤٧٤)

فقرن الشاعر بين الصورة والنغم فى شعره، فعمارة القصيدة تقوم على الصورة الحسنة والنغم الجميل العذب، يقول الرضى فى قصيدة:

«و أنت ابنة الفكر فابلتنا
بعقد لجيد العلى منتظم

تروقين اسماعنا فى النشيد

كانك من كل لفظ نغم

(نفس المصدر، ص ٣٧٩)

انّ النزعة الطبيعية إلى الانسجام والإيقاع هي الأساس فى نظم الشعر، لأنهما عنصران جوهريان فى صناعة الشعر بينما العروض عنصر عرضى، فالإيقاع هو قوة الشعر الاساسية لأنه هو أول ما يدخل ميدان الفعل فى العمل الإبداعي .

و هناك جوانب أخرى من شعر الشريف الرضى مثل الوحدة العضوية والموضوعية فى شعره، حين ننظر إلى قصائده فإننا نجد آثار خيال نظم اجزاء القصيدة ونسقها بعد ان ابداعها ابداعاً ينبع من الهام سام وروح منظمة، ترتب الاجزاء ترتيباً عضوياً يظهر اثر هذه الروح الذى تكون دونه القصيدة آلية نافضة فى بنائها الفنى لا روح فيها و هذا يعارض طبيعة الشعر. وكتفى بالوحدة العضوية فى شعره بمراجعة قصيدته التى رثى بها ابا طاهر بن ناصر الدولة و التى يقول فى مطلعها:

و يأخذنا الزمان و لا يتردُّ

تفوز بنا المنون و تستبدُّ

(نفس المصدر، ج ١، ص ٣٦٦)

تقع القصيدة فى أربعين بيتاً نموذجاً تاماً لبناء وحدة عضوية متناسقة الأطراف حيث ينمو هيكل القصيدة و هذا البناء من الداخلى نمواً تدريجياً متماسكاً بعيداً عن الحشو و التكرار، فالبذرة التى تتولد منها هذه القصيدة هي موضوع الرثاء حيث يتمثل النمو الداخلى فى الحديث عن حتمية الموت الذى يصيب الجميع فلا يردّه مجدّ ولا وفرّ ولا جُنْدُ.

الخيال عند الشريف الرضى

و اما الخيال الذى يقول عنه ابن سينا «الشعر لا يتم إلا بمقومات مخيلة و وزن ذى إيقاع مناسب ليكون اسرع تأثيراً فى النفوس» (المجموع، ص ٢٠)، فنجد امثلة رائعة للخيال فى شعر الرضى و منه ما جاء فى قصيدة «ظبية البان» فاجتماع الخيال و الوزن يوفران فى الكلم فعالية نفسية ذات تأثير كبير ذى طابع جمالى و نجد مثلاً عليه فى قصيدته السالفة الذكر «ظبية البان» حيث سما بناء هذه القصيدة و ارتفع من إجتماع القيم الجمالية فى الوزن و الخيال مع ما يماثلها فى اللفظ و المعنى فكانت «ظبية البان» من أناشيد العربية

على مزالعصور، ويكفى دلالة على ما نقوله ان نختار بيتاً واحداً من أبياتها:

«سهم اصاب و راميهِ بذي سلم من فى العراق لقد ابعدت مرماي»

(نفس المصدر، ص ٢/١٠٧)

و فى قصيدة يرثى فيها الرضى أباه، نجد مخيلة تذهب بعيداً، تفتش و تصطاد و تبحث عن صور و تراكيب مناسبة للحال و الموضوع فتقتنص فكرة «رفاد الملوك» المناسبة لغياب عزيز الاشراف و تقييهم «والد الشاعر» كما تقتنص صفة «حزم الابلج» كناية عن قوة رأى المرثى و وسامته، وسعة الفكر، و الصفة اقتنصت المخيلة صورة تقوم على التشبيه البليغ هى «رايه فلق» إشارة إلى الرأى الشاقب الواضح و لم تكتف هذا المخيلة بهذا بل اردفته بكناية «عاشيه العقول» و هى كناية عن «سوء البصيرة، ثم اتى بكناية «العقول النوم» و بعد العودة من مرحلة الصيد هذه تتربع مخيلة الشاعر على عرش الجمال و تأتى قولاً تصدح به الحناجر نغمأ زينته تفعيلات البحر الكامل:

«رقد الملوك بحزم أبلج رأيه فلق لعاشية العقول النوم»

(نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩٣)

لقد حوّل الرضى الواقع إلى خيال ثم اعاد الخيال و فجعله واقعاً آخر حين اعتمد فى إبداعه على افتتاحان النشاط الخيالى، ففى ديوانه أمثلة غير قليلة على الخيال بأنواعه الحسى و المجرد و التقليدى و الابتكارى و ما إلى ذلك من خيالات قد صنفها النقاد.

(أنظر قصائده التى تنوّر فيها صفة الخيال فى ديوانه، ج ١، ص ٣١٢ و ٢٨٣ و ٣١٢ و ٢٩١ و ج ٢، ص ٢١٤ و ٢٩١

و ٢٣٠ و ٣٦٨)

المخاتمة:

رأينا من خلال هذا المقال أن الشريف الرضى كان فذاً فى جوانب متعدّدة من حياته فقد الم بالفضل و العلم و الأدب. و كان شاعراً نموذجياً إرتفع بأدبه مما نوغل الكثيرون من الشعراء فى عصره و من تقدّمه، فقد أظهر معانى العزة و الكبرياء ثمّ عالج الشعر بالمعنى الإنسانى فلا مدح لطمع أو رهبة و لا غلّو يخرججه و يخرج شعره من الإطار الانسانى النبيل ثمّ أنّه عالج الأغراض المعروفة فى زمانه و لم يدخل الهجاء لنفسياته

الرفیعة إلا القلیل النادر جدّاً حیث ارتأى أنّه یخدم مصنّحة عامّة، كما رأیناه شاعراً قویّاً من ذوی العقول الحصیفة و القلوب المرهفة كما المحنا فی ما تقدّم متانة البنية الفنّیة فی شعر الشریف و ارتکازها علی أعلام من سبقوه إضافة إلى ارتکازها إلى خیالٍ خصب و طبع سمح قدّما نصّاً أدبياً غنّياً بصوره، حیثاً مطرباً بإیقاغه.

المصادر:

- ١- ابن سینا، المجموع أو الحکمة العروسیة (من کتاب معانی الشعر)، تحقیق محمّد سلیم سالم، ١٩٦٩م.
- ٢- ابن شهر آشوب، معالم العلماء، طهران، ١٣٥٣ هـ.ش.
- ٣- ابن طباطبا العلوی، عیار الشعر، تحقیق طه الحاجزی، محمّد زغلول سلام، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٤- د. أسعد علی، فنّ المنتجب العانی، ط ٢، بیروت، ١٩٨٠م.
- ٥- الأملین، السید حسن، الموسوعة الإسلامیة، ط ١، بیروت، دارالتعارف، ١٩٧٩م، ج ٤.
- ٦- الأملین، السید محسن، أعیان الشیعة، دار مطبعة التعارف، ١٩٨٦م، ج ٩.
- ٧- الأملینی، عبدالحسین أحمد النجفی، القدير، ط ٢، بیروت، دار الکتب العلمیة، ١٩٦٧م، ج ٤.
- ٨- الباخرزى، أبو الحسن، دمية القصر و عصرة أهل العصر، تحقیق سامی العانی، ط ٢، الكويت، دارالعروبة للنشر و التوزیع، ١٩٨٥م، ج ١.
- ٩- الشعالبی، أبو منصور، بتيمة الدهر، ج ٣، بیروت، دار الکتب العلمیة، ١٤٢٠هـ.
- ١٠- الخطیب البغدادی، أبو بکر احمد، تاریخ بغداد، ط ١، القاهرة، مطبعة السعادة بلاتا.
- ١١- سید علوی، سید إبراهيم، هزارة شریف رضی، مقاله و اندیشه های سیاسی شریف رضی، ص ٥٦-٣٩.
- ١٢- الشریف الرضی، دیوان الشریف الرضی، ط ١، ایران، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامی، ١٤٠٦هـ.
- ١٣- الشریف الرضی، دیوان الشریف الرضی، ج ١ و ج ٢، دار بیروت للطباعة و النشر، بلاتا.
- ١٤- عبدالغنی، حسن محمّد، الشریف الرضی، ط ٣، مصر، دارالمعارف، ١٩٨٠م.
- ١٥- غریال، محمّدة شفیق، الموسوعة المیسرة، بیروت، دار احیاء التراث العربی، ١٩٨٧م.
- ١٦- فزوخ، عمر، تاریخ الأدب العربی، ط ٥، بیروت، دارالعلم للملایین، ١٩٨٤م، ج ٣.
- ١٧- مبارک، زکی، عبقریة الشریف الرضی، ط ٢، بیروت، المطبعة العصريّة للطباعة و النشر، بلاتا.